الأميرُ، ميّتًا

لنعد قليلًا بالزمنِ...

بعدَ هروبِ ليون ودنيا مِن حصنِ ندفة الثلجِ، انتظرَ قاسم الجرَّاح عودةَ العيون وجنودِ الاستطلاعِ بأخبارٍ تكشفُ موقعَ الهاربين أو اتجاههم الحاليَّ، وبعدَ انتظارٍ ليس بالطويلِ، جاءهُ جنودٌ أخبروهُ بأن ليون ومَن معهُ لمحَهم صيادون وهم يتجهون إلى قريةِ مشَّى الواقعةِ في الشمالِ الغربيّ للحصنِ، فبعثَ بجواسيس للتأكدِ مِن المعلومةِ، ثم اتجهَ بخَيرةِ رجالِ الحصنِ وبالرجالِ الذين صحبوهُ منذ بدايةِ الرحلةِ إلى قريةِ مشَّى.

ثم اتباعًا لنصيحةِ نائبهِ، قررَ اللجوءَ إلى الحيلةِ بدلًا مِن القتالِ المباشرِ، فأرسلَ خفيةً إلى شيخِ القريةِ ليحضرَ، ثم إلى محمد الذي صارَ أداتهُ في القضاءِ على ليون دون معركةٍ أو قتالٍ، بوضعِ السمّ. وكان قاسم مؤمنًا بنجاحِ الخطةِ؛ فكيف لليون أن يتوقعَ مِثْلَ هذه الحيلةِ، خاصةً بعدَ أن وصلَ إلى برِّ الأمانِ؟

وبسببِ هذا الإيمانِ، فضَّلَ ألا يُرْسِلَ جنودًا إلى القريةِ، وعسكرَ خارجَ جدرانها، وفقط للحيطةِ أرسلَ اثنين مِن الرماةِ ليتخلصا مِن ليون إذا فشلَ محمد...

- «بدْر، ما الأخبارُ؟».

التفتَ الرامي المستلقي على بطنهِ على المبنى المعاكسِ لبيتِ محمد، فرأى الرسولَ الذي بعثهُ قاسم كلَّ ربع ساعة ليحملَ الأخبارَ إلى المعسكرِ، فهدأ قليلًا، وعادَ لينظُرَ إلى بيتِ محمد بالمنظارِ الصغيرِ الذي كان بيدهِ، ثم قال: «أفزعتني يا أخي! مهّد لقدومكَ بصوتٍ ما».

ضحكَ الرسولُ وقال: «أيُّ صوتٍ كان ليخيفكَ؛ هذه القريةُ صارت قريةَ أشباح منذ أن حضرَ الشيخُ أمامَ السيدِ قاسم».

كان شيخُ القريةِ كالحاكمِ الصغيرِ الذي تُسْمَعُ كلمتهُ طالما قالها في حيّزِ جدرانِ القريةِ.

قالَ الرامي بدْر: «عُدْ إلى المعسكرِ؛ لا أخبارَ».

- «أحقًا تستطيعُ رؤيةَ أيّ شيءٍ بهذا المنظارِ؟ لقد فقدتُ العدَّ كم مرةً عدتُ بلا أخبارٍ».

- «لا أستطيعُ رؤيةَ داخلِ البيتِ، خاصةً مع انعكاسِ الشمسِ على الزجاجِ».

تثاءبَ الرسولُ ونامَ على ظهرهِ على السطحِ، ناظرًا إلى سماءِ العصرِ وما لحقهُ قبل المغربِ، ثم عادَ ليقولَ: «إذًا ما الفائدةُ؟ أتظنُّ حقًا أن ذلك القرويَّ سيخرجُ ليُعلنَ أنهُ نجحَ وينتهي الأمرُ؟ مستحيلٌ، مستحيلٌ. أرأيتَ ما فعلهُ الأميرُ للهربِ مِن إعدامهِ؟ هذه المجموعةُ خطرةٌ... كما أني سمعتُ أحدهم يذكرُ (الأسلحةَ الجيماتَيْتِيَّةِ) في الموضوعِ...».

- «أوافقكَ الرأيَ، ولكن ما الذي يراهُ الأعمى في الظلامِ؟ إنهم لا يدرون بعد أننا كشفنا مخبأهم، فإن فشلَ القرويُّ، سأهتمُّ بكلِّ شيءٍ مِن هنا».

رفعَ بدر القوسَ ليُظهرَ أن القوةَ لإنهاءِ الأمرِ بيدهِ، فضحكَ الرسولُ وقالَ: «اخفضهُ حتى لا يرونهُ!».

استاءَ بدر مِن سخريةِ الرسولِ، فقالَ: «هيَّا تحرَّكْ أيها الكسول؛ ستمضي ربع ساعة أخرى دون عودتكَ إن لمْ تتحركْ».

- «حاضر، حاضر».

-«انتظر!».

- «ما الأمرُ؟».

التفَّ بدر متحمسًا وقالَ: «انظر، القرويُّ يعطي الإشارةَ أنهُ نجحَ في المهمةِ! ها هي أخبارٌ لتحملها عائدًا!».

أرسلَ بدر إشارةً بسهمٍ في الهواءِ إلى زميلهِ الذي راقبَ الناحيةَ الأخرى مِن المبنى، ثم أسرعَ مِن على السطحِ، ليفقدَ البصرَ بما يحدثُ عندَ البيتِ لعدةِ ثوانٍ.

- «سأسرعُ أنا بالخبرِ إلى سيدي قاسم».

- «لا تسرق كلَّ المجدِ لنفسكَ!».

سارَ بدر بشيءٍ مِن نشوةِ النصرِ وهو يفكِّرُ:

- «يا ترى، هل في هذه النتيجةِ ترقيةٌ لنا؟ لا أريدُ أن نمضي بقيةَ حياتنا في هذه الأريافِ نحرُسُ سفحَ جبلٍ».

عندما وصـــلَ الرامي بدر وزميلهُ إلى واجهةِ بيتِ محمد، كان حصـــانان يصـــهلان ووراءهما عربةٌ جاهزةٌ ليجراها، عند ركنِ البيتِ. ووقفَ محمد أمامَ العربةِ.

رأى محمد الرامي بدر أولًا فقال: «أرجو أن تسرعَ؛ فحياةٌ معلقةٌ برقبتي».

تجاهلَ بدر التعليقَ، وســألَ: «هل اهتممتَ بجميعِ مَن صـحبوا الشابَّ؟».

- «أؤكدُ لكَ أنهم لن يستطيعوا التدخُّلَ؛ السمُّ عملَ مفعولهُ».

أومأ بدر سريعًا، ثم سألَ: «كم كانوا؟».

-«اثنان».

- «الجثتان بالداخِلِ؟».

- «أجل، أأصحبكَ إليهما؟».

- «لا، أريدُ جثةَ الشابِّ».

وصلَ الرامي الثاني، وكان أكبرَ سنًا وخبرةً.

قال محمد للاثنين: «لقد وضعتُ جسدهُ بالعربةِ».

فخاطبَ بدر زميلهُ: «إذًا، هيَّا، كلما أسرعنا كان أفضلَ».

ركبَ محمد بمقدمةِ العربةِ، واتجهَ الراميان إلى خلفِ العربةِ.

سألَ محمد: «هل مِن أمرٍ ما؟».

- «اصمت أنتَ».

ركبَ بدر العربة مِن الخلفِ، وتبعهُ زميلهُ المدعوُّ حسن.

قالَ حسن: «لماذا يا بدر...؟ قلتُ لكَ ألا تتسرعَ هكذا... كان يمكنُ أن يكونَ فخًّا فنقتلَ معًا... هآه، تفقد الجثةَ».

فردَّ بدر: «لا أقدرُ على التعاملِ مع الجثثِ، تفقدها أنتَ».

- «هيَّا! أنا لا أسألُ المستحيلَ، تفقَّدْ وجههُ ونبضَ معصمهِ».

- «حسنًا، حسنًا... يا لهُ مِن وضع يُلْقَى بهِ أميرٌ... حقًا، كما يقولون: الكلُّ سواسيةٌ في الموتِ».

- «مَن يدعون أمراءَ يمتصون دماءَ أمثالنا؛ مِثلُ هذا الوضعِ هو ما يليقُ بهم».

كان ليون ملقى على وجههِ وملصقًا بخشبِ العربةِ الذي صنعَ التحوُّلَ مِن سقفِ العربةِ الجلديّ إلى الأرضيةِ الخشبيةِ، وكانت يدهُ اليمنى تحتهُ مباشرةً، بينما اليسرى ملويةً إلى الخلفِ ومستقرةً على ظهرهِ.

انحنى بدر لحظةً، ثم قال: «الوجهُ وجههُ، ولا نبضَ بيدهِ. الله يرحمهُ إن شاءَ».

استنتجَ حسن أن محمد صادقٌ في كلِّ كلامهِ، وهدأ قليلًا مِن الشكوكِ، فقالَ: «هيَّا، احمد الله أن كل شيءٍ انتهى على ما يرام واركبْ بالأمامِ، سأُشاركُ أنا الجثةَ في المقعدِ».

خرجَ بدر ليجلسَ بمقدمةِ العربةِ بجانبِ محمد، وجلسَ حسن بالخلفِ.

وبعدَ لحظةٍ، سمعَ الجالسون بالأمامِ صوتَ حسن يقولُ: «ما كلُّ هذه الدمى يا محمد؟».

- «إنها جزءٌ مِن عملي... أنحتها مِن الخشبِ».

- «في حجمِ وشكلِ الإنسانِ؟ وتُلبسها ملابسًا؟ يا للقرفِ!».

- «إذا كنتَ لا تتحملها، يمكنني نقلها لعربةٍ أخرى، ولكني سأحتاجُ بعضَ الوقتِ».

- «سرْ، لا وقتَ».

آمنَ الراميان بما شاعَ عن قاسم الجراح بأنهُ «يعاقبُ ويكافئ بنفسِ الدرجةِ مِن الشدةِ»، وفسَّرا ما سمعا بأن مكافأةً عظيمةً تنتظرهما؛ فما أحضراهُ أعطى لهما الحقَّ لطلبِ «الكثيرِ الكثيرِ»، حسب ظنهما.

وهي تشاهدُ العربةَ تبتعدُ عن البيتِ، تنهدت دنيا.

- «آه، هكذا ضاعَ دورنا... كنتُ أودُ أن ألعبَ دورَ أحدِ الجنودِ ثانيةً، كان ذلكَ ليذكرني بما أبدعتهُ في الحصنِ!».

نظرَ سامح مِن الشباكِ فلمحَ آخِرَ عجلاتِ العربةِ قبل أن تمضي، وقالَ: «ما أبدعتهِ حدثَ هذا الصباح».

-«ذكريات!».

ضحكَ سامح ضحكةً خافتةً أشارت إلى إخفاءهِ لشيءٍ مِن القلقِ، ثم قالَ: «هيَّا، دقيقتان وسنبدأ في تحضيرِ العربةِ الأخرى».

- «ما هذا الظلمُ؟! يا ليت الجنود تفقدوا جثثنا! الآن لِيَا ونورة تحصلان على كلِّ المتعةِ وأنا أحضِّرُ العربةَ!».

-«استحملي».

تنهدت دنيا وتذكَّرت ما حدثَ منذ قليلٍ، عندما نادى محمد على ليون، قبل بدايةِ كلِّ شيءٍ:

- «سيدي ليون».

نظرَ ليون إلى وجهِ محمد المملوءِ بالأسفِ، وسألَ: «ما الأمرُ؟».

- «في الحقيقةِ، هناكَ أمرٌ آخر أتمنَّى أن تأخذهُ في الحسبانِ... هو طلبٌ، قد يكونُ صعبًا، ولا أُلزِمكَ بتلبيتهِ؛ فقط أرجوكَ...».

غضبَ سامح وسألَ: «ما الأمرُ الآن؟ أيملكُ مثلكَ أن يقولَ ما تقولُ؟».

في حجرةِ الاستقبالِ جلسَ محمد بسلمى الصغيرةِ في حِجْرِهِ، وتحدَّثَ:

- «فكَّرتُ في الأمرِ وترددتُ كثيرًا قبل أن أخبركَ، ولكن حقًا، لا يوجدُ بديلٌ. في الحقيقةِ، شيخُ القريةِ لمْ يُحضرني وحدي لأقفَ أمامَ مَن تدعونهُ قاسم، ولكنهُ أحضرني وصديقي المقرَّب خالد، واتخذَ خالد سجينًا عندهُ، وهددَ بقتلهِ إن فشلتُ في المهمةِ أو خنتهم... ولا يزالُ خالد أسيرًا في المعسكرِ الآن، فإن كنتَ ستقاتلُ، أرجوكَ، دعني أقاتل معكَ؛ قد لا يبدو عليَّ، ولكني أجيدُ استعمالَ السيفِ، كما أني أريدُ إنقاذ صديقي... أريدُ حقي في فرصةٍ لإنقاذهِ».

سألَ ليون: «وهل يستحقُّ صديقكَ ما تفعلهُ لأجلهِ؟».

-«أجل».

أمامَ ثقةِ محمد، سألَ ليون ثانيةً: «إذًا هو وسلمى جعلاكَ تضعُ السُّمَّ؟».

فقدَ محمد اتزانهُ ولمْ يدرِ كيف يجيبُ، فضحكَ ليون ضحكةً لمْ يرها أيُّ مَن كانوا بالحجرةِ مِن قبل، وقالَ: «لا مفرَّ... يبدو أني لن أستطيعَ تجربةَ الأجهزةِ التي أتى بها سامح كما أردت بالضبطِ، ولكن لا مشكلة».

- «لا يمكنني أن أشكركَ كفايةً——».

- «بالطبعِ سآخذُ المقابلَ المناسبَ لقاءَ ما سأفعلُ».

- «وأنا مستعدٌّ؛ يمكنني أن أقدِّم كلَّ ما بوسعي!».

توقَّف ليون عن الكلامِ لحظةً، فكَّرَ في الأمر، ثم أجابَ: «لقاءَ المساعدةِ... ستضطرُ لأن تقتلني».

-«عفوًا؟».

مرَّت العربةُ مِن البابِ الشرقيِّ للقريةِ، ونظرَ محمد إلى أعلى السورِ الخشبيِّ، فرأى جنديين قد وضعهما قاسم حتى لا يمُرَّ أحدٌ دون علمهِ وموافقتهِ. واستنتجَ محمد أن جنودًا آخرين تمركزوا عند البوابتين الباقيتين، وبذلك قد يكونُ عددُ الجنودِ بالمعسكرِ أقلَّ مِن المتوقَّعِ. وعززَ هذه الفكرةَ زيارتهُ السابقةُ للمعسكرِ؛ حيثُ أنهُ رأى أنهُ ليس بالكبيرِ، فكان بحجمِ بقعةٍ صغيرةٍ وسطَ الغابةِ.

- «لقد انتهى الأمرُ! جثةُ الأميرِ معنا!».

صـــاحَ بدر الجالسُ بجانبِ محمد إلى أحدِ الجنديين المراقبين للبوابةِ.

وبعدَ الصيحةِ، سمعَ بدر صوتَ حسن وهو يهمسُ بغضبٍ: «أيها الغبي! مـاذا ســتكســبُ إن أعلنـتَ الأمرَ الآن؟ مـاذا إن قررا النزولَ ومشاركتنا في المكافأةِ؟».

عبرت العربةُ وأكملت في الطريقِ الممتدِّ خارجَ القريةِ.

ردَّ بدر: «ليس كلُّ الناسِ هكذا!».

ثارَ حسن وصاحَ: «ما الذي تقصدهُ بـ(هكذا)؟».

- «لا أقصدُ شيئًا».

التزمَ بدر الصـمتَ قليلًا، حتى وصـلت العربةُ إلى مكانٍ مُعلَّمٍ برايةٍ حمراء صـغيرةٍ بها رسـمُ قصـرٍ أسـود -راية الإمبراطورية-، فخرجَ محمد بالعربةِ عن الطريقِ، وبدأ في السيرِ في طريقٍ آخر غير ممهدٍ وسطَ أشجارِ الغابةِ.

حينها، تنهد بدر وخاطبَ محمد لأولِ مرةٍ منذ تحرُّكِ العربةِ، قائلًا: «وأنتَ ما رأيكَ؟».

- «في ماذا؟».

- «في مشـكلتنا هذه... كلنا مِن المدنِ، وكلنا بُعثنا إلى الريفِ. الحياةُ صعبةٌ في هذه الأنحاءِ، خاصةً على مثلنا مِن الجنودِ، وهذه الحياةُ جعلتنا كما ترى نحلِّلُ فِعْلَ أيّ شيءٍ لنتخلصَ منها -نضحكُ على بعضنا البعضِ، نفضحُ أخطاءَ بعضنا البعض، نحسدُ ونحقدُ-، ولكني لا أؤمنُ

بأن واحدًا فقط يستطيعُ الهروبَ من هذه الحياةِ؛ إما أن نهربَ جميعًا أو نسقطَ جميعًا. أؤمنُ بأن علينا أن نعملَ معًا لنهربَ منها، بأن علينا أن نقتسمَ فاكهةَ جهودنا معًا... ولكن حسن والآخرين يدعونني مجرَّد غبيٍّ».

- «وما أدراني أنا؟».

- «اسمكَ محمد، أليس كذلكَ؟ أنتَ قرويٌّ، ولا بدَّ أن ما أثَّرَ بالمدينةِ أثرَ بالقريةِ عشرات الأضعاف».

- «لا علمَ لي؛ لستُ قرويًّا، ولستُ مِن هذه المنطقةِ في الأساسِ».

ظنَّ بدر أن أحدًا لن يفهمهُ، فعادَ إلى برودهِ، وحينها ظهرَ المخيَّمُ بعدَ أوراقِ آخرِ شجرةٍ، فتمتم بصوتٍ خافتٍ: «وصلنا».

لمْ يتجهْ محمد بالعربةِ مباشرةً نحو الوقوفِ، بل دارَ بها لتواجهَ جهتُها الخلفيةُ الخيامَ، معللًا بأن ذلكَ يسهّلُ إنزالَ الجثةِ. وبتوقف العربةِ النهائيّ، نزلَ ثلاثةُ الرجالِ -محمد وبدر وحسن-، فاتجهَ الأخيرُ إلى الخيمةِ الرئيسيةِ ليكونَ الأولَ ليُخبرَ قاسم بوصولِ جثةِ الأميرِ.

- «مكافأةً تقولُ؟! كلُّ ما فعلتموهُ أن صححتم خطأكم السابقَ!».

صاحَ قاسم الجراح بأعلى صوتهِ، حتى أخافَ حسن مِن أمامهِ، فعادَ حسن يجري خارجَ الخيمةِ. ووراءهُ، ظهرَ قاسم بالمشهدِ.

خرجَ مِن الخيمةِ بدرعهِ العملاقِ وسيفهِ المماثلِ في الحجمِ، وسارَ حتى صارَ على بُعدِ خطواتٍ مِن حيث وقفَ بدر ومحمد، ثم

توقَّفَ، وتوقَّفَ وراءهُ مساعداهُ الاثنان، وبدأ بعضُ الجنودِ يظهرون مِن داخلِ الخيامِ ليشاهدوا ما سيحدثُ.

- «أحضر الجثةَ».

أمرَ قاسم، فلبَّى حسن بسرعةٍ، وأشارَ إلى بدر أن يدخلَ ويجرَّ الجثةَ إلى الخارجِ. ورغمَ أن الأخيرَ لمْ يُجِد التعاملَ مع الموتى، لمْ يستطع الرفضَ، وباشرَ بتنفيذِ الأمرِ.

-«انتظر!».

أوقفهُ محمد، ثم قالَ محدِّثًا قاسم: «أحضِر خالد؛ لقد سبقَ أن رأى جنودكَ الجثةَ ولكني لمْ أرَ صاحبي بعد».

ابتسم قاسم ابتسامةَ استهانةٍ بالطلبِ، وفكَّرَ:

- «حسنًا، حسنًا، أنا لا أعودُ في كلمتي؛ سيرجعُ صاحبكَ إليكَ حيًّا، سأحققُ أمنيتكَ الأخيرةَ قبلَ أن أبعثكما معًا في زيارة إلى الجنةِ أو النارِ، لا يهمُّ».

صاحَ قاسم: «حسنًا، أحضروهُ».

ذهبَ أحدُ مساعدي قاسم وعادَ سريعًا بخالد. كان خالد مربوطًا بحبلٍ حول بطنهِ ومكممًا بقطعةِ قماشٍ، وسارَ إلى الأمامِ بهمودٍ، دون أن يتأثَّر بضرباتِ المساعدِ لهُ، حتى رأى محمد، حينها تحوَّلَ سلوكهُ تمامًا، فأخذَ يحاولُ الكلامَ والصياحَ وتحريرَ نفسهِ، بوجهٍ ظهرَ عليهِ التأثُّرُ الشديدُ لقدومِ صديقهِ. ولكن في النهايةِ، أنزلهُ المساعدُ إلى ركبتيهِ، ودفعهُ إلى الأمامِ فسقطَ على وجههِ ولمْ يستطع الحركةَ.

قالَ قاسم: «ها هو صديقكَ، على قيدِ الحياةِ كما اتفقنا. سأسلمهُ بعد أن يستلمَ رجالي الجثةَ».

أشارَ قاسم إلى بدر، فتقدَّمَ دون مانع نحو العربةِ، وصعدَ إلى جزءها الخلفيّ ليُحضرَ الجثةَ، ولكن جميعَ مَن وقفوا سمعوا صرخةً بعدَ لحظةٍ.

أشهرَ قاسم سيفهُ، فسارعَ حسن بتهدئتهِ: «لا، لا! سيدي قاسم، اهدأ! الولدُ لا يجيدُ التعاملَ مع الجثثِ؛ إنهُ جديدٌ».

مناقضًا لكلِّ التوقعاتِ، ضحكَ قاسم قليلًا، وأعادَ سيفهُ إلى غمدهِ، وفي الحالِ شاركهُ آخرون الضحكَ.

أكملَ حسن وهو يتحرَّكُ: «في لحظةٍ! سأساعدهُ!».

ظلَّت عينان تراقبان مِن داخلِ ظلامِ العربةِ، عينان مِن أعين الأمواتِ.

وصلَ رسولُ قاسم إلى البوابةِ الشرقيةِ للقريةِ، فوقفَ عندها وصاحَ بأعلى صوتهِ: «يا رجال، أوامرٌ مِن السيدِ قاسم!».

نظرَ الجنديان مِن موقعهما على السورِ الخشبيّ المحيطِ بالقريةِ، وصاحا: «قلْ ما عندكَ!».

- «لا أستطيعُ... انزلا! الأخبارُ مهمةٌ!».

نظرَ الجنديان إلى بعضهما البعض في عدمِ مبالاةٍ وعدمِ تصديقٍ؛ فما الأخبارُ المهمةُ الآن بعدَ موتِ الأميرِ غيرَ نبأ العودةِ إلى الحصنِ، إلى الحياةِ المملةِ؟

- «ما الأمرُ الآن؟».

وقفَ الاثنان أمام الرسولِ الذي بدا متوترًا على غيرِ عادتهِ، ثم استمعا إلى الأوامرِ حتى شحبَ لونُ وجهيهما.

- «أنتَ تمزحُ، أليس كذلكَ؟».

- «دمكَ ثقيلٌ كالعادةِ».

لمْ يضحك الرسولُ، وقالَ: «نفّذا حالًا، وسينضمُّ كلُّ الجنودِ المتمركزين ببواباتِ القريةِ».

- «مستحيلٌ أن نفعلَ هذا! أليس كذلكَ يا صاحبي؟».

رددَ الجنديُّ الآخرُ وقالَ: «مَن نحنُ لنعلّقَ على أوامر السيدِ قاسم؟».

ردَّ الأولُ: «لا أصدّقُ أنكَ ستفعلُ هذا!».

- «فكّرْ في الأمرِ، ألمْ تسمع الحديثَ عن أن هذه القريةَ وكرٌ للجواسيسِ؟ حتى أن الأعداءَ عندما لجأوا، لجأوا إلى هنا... لا بدَّ أن شيخَ القريةِ والأعيانَ وافقوا السيدَ قاسم على هذا القرارِ لصالحِ ديمنتيا».

- «ولكن سفكُ الدماءِ البريئةِ...».

لمْ يُجِبْ أحدٌ.

برحيلِ الرسولِ ليخبرَ باقي الجنودِ، كان واقعٌ جديدٌ قد ارتسمَ: كان قاسم يستقبلُ جثةَ ليون، وكان شيخُ القريةِ والأعيانُ محتجزين بإحدى خيامِ المعسكرِ للضرورةِ، وكان في يدِ الجنودِ عند البوابةِ أمرٌ واحدٌ، وهو أن يحرقوا القريةَ بأكملها، دون أن يتركوا أيًّا مِن أهلها أحياءً.